دلالات الاستفهام في الشعر الحديث

الشاعر "مروان خاطر" أنموذجاً

الدكتورة بدور عبد الرحمن الزيات

كلية الآداب/ جامعة الفرات/ سورية

الملخص

مروان الخاطر هذا الشاعر الفراتي الأصيل يجمع النقيضين في آنٍ معاً الحضورُ روحاً وشعراً وفكراً، وغيابُه عنا جسداً، وخيرُ دليلٍ على ذلك اختيارنا لحروفه وكلماته المشتهاة، فما زال دفءُ كلماته يبعد الصقيع عن قلوبنا، وما زال نور حرفه البهيّ يبدد ظلمة أيامنا، فلروحه المتربعة في كبد السماء ألف تحية.

يهدف بحثنا إلى إبراز دلالة الاستفهام في شعر مروان الخاطر، إذ إن الاستفهام، ولاسيما المجازي يعد وسيلة تعبيرية يعبّر الشاعر من خلاله عما يجيش في صدره من مشاعر.

الكلمات المفتاحية: (الدلالة، الاستفهام الحقيقي، الاستفهام المجازي، السياق).

مقدمة البحث:

بعد الشعر الحديث موتيفة متطورة من عمود الشعر العربي، إذ كان الخروج على أنظمة وشرائط عمود الشعر تجريباً جديداً يلجّه الشعراء بغية تحقيق تحولات نصية ضاق بها عمود الشعر العربي، ويتخذ الشعراء أسالیباً مختلفة لتوظيف تلك التحولات في كُنه القصيدة الحديثة، فيغرق بعضهم في المجاز، ويدور آخرون حول مفاهيم فلسفية، ويعكف ثلة منهم في استكشاف الواقع بكل تجلياته، وفي هاتيك التجليات إنّما يلمح الشعراء إلى وجود الآخر في بنية النص، وإن النص صورة تثير أسئلة وجودية وحياتية وغيبية .

واستجابة لرؤية الشاعر تتبلور في النص الشعري الحديث أسئلة ومفاهيم ورؤى تتقاطع بينها أحياناً، وتتوافق أحياناً أخرى، وبذلك يغدو النص الشعري فضاءً حياتياً تتحاور فيه سمات الوجود واليقين والشك، وحواراً مع آخر يحقق افتراضات تنبؤية ويوتوبية، ينسلخ فيها الشاعر عن ذاته ويتماهى بالآخر، فتتعدد الصور والدلالات، ومما لاشك فيه أن النص الشعري صار ممهوراً بأبعاد وجودية تثير حساسية المتلقي، وتستميل رؤيته، إذ يقف الشاعر قبالة المتلقي في النص محاوراً ومستفهماً، ولما كان المتلقي منتج آخر للنص، فإن هاتيك الاسئلة الوجودية تبحث عن إجابات تشاركية يتحد فيها الطرفان (الشاعر والمتلقي) على أعتاب النص، وتخوم دلالاته، وقد كان مروان الخاطر يشيع تلك التساؤلات في شعره عبر تخيل قارئ افتراضي يقابله في النص، فيحاول محاكاته وجودياً إذ شكلت تلك التساؤلات استفهامات نصية مهيمنة في شعره .

ولا ريب في ذلك، فقد قيل أن الأسلوب هو الرجل نفسه، وإن النص عالم منشئه، وفي ذلك تعدو الأساليب الشعرية أساليب وجود حياتية يمكن للقارئ أن يهتدي بها إلى ماهية النص، وطريقة تفكير الشاعر، وأسلوب بناء نصه، مادام الشعر صوغ خيالي يتضمن كل النبوءات والاستشرافات، ويحاول الإجابة عن أسئلة الحياة الوجودية .

إن الاستفهام قد يتجه إلى الذات، أو الآخر، أو الكون، أو يكون بعداً ميتافيزيقياً تلوذُ به أسئلة لا جواب لها، ومادام الاستفهامات تتنوع في اتجاهاتها فإنها تشكل حوارية مع الأشياء، وصوراً قد تغدو بدائل افتراضية لما كان، ويرشح في كل هذا المسكوت عنه في النص الشعري، وتتجلى ذات الشاعر، وتتحدد أفكاره .

لمحة موجزة عن الشاعر:

نذكر بأن الشاعر الراحل مروان لطوف الخاطر من مواليد البوكمال عام /1943/ من محافظة ديرالزور بسوريا، عمل في سلك التعليم، وفي الإعلام وكان عضواً في اتحادي الكتاب العرب والصحفيين وشغل مواقع ثقافية وإعلامية وكرم مرات عدة، من مؤلفاته في الشعر (الناي الجريح)، و(نشيد الغربة)، و(أصوات في

سمع الزمن المقهور)، و(أخاف عليك فابتعدي)، كما كتب برامج إذاعية ومسلسلات تلفزيونية، وتوفي في الخامس من نيسان عام /2021/.

هدف البحث:

يهدف بحثنا إلى إبراز دلالة أسلوب الاستفهام في شعر مروان الخاطر.

منهج البحث:

اتبعنا في بحثنا هذا المنهج الوصفي التحليلي، الذي اتكأ في بعض جوانبه على المنهج النفسي.

أهمية البحث:

تنبع أهمية البحث من جدّته، إذ إنّ شعر الخاطر لم يدرس من قبل، ولاسيما أن أساليب الاستفهام طغت على معظم قصائد الديوان.

أسئلة البحث:

سيجيب البحث عن سؤال مهم؛ وهو لمَ اتكأ الخاطر على أدوات الاستفهام ليعبر عن الرؤى والأفكار التي تجيش في خاطره؟.

توصيات البحث:

إدراج بعض قصائد الشاعر مروان الخاطر في المناهج المدرسية، وإقامة ندوات عدة حول الشعر الفراتي عموماً.

لا ريب أنّ الاستفهام أسلوب مهم من أساليب العربية، يطلب به معرفة شيء ليس معلوماً لدى السائل بوساطة أدوات معلومة، فهو نمط تركيبي استعمله العرب قديماً، إذ إنه من الأساليب الإنشائية الشائعة بين الناس للتواصل فيما بينهم لما له من قدرة تعبيرية أبلغ وأجمل من استخدام الأسلوب الخبري المباشر.

الاستفهام لغة:

قال ابن منظور: " الفَهْمُ: مَعْرِفَتُكَ الشَّيْءَ بِالْقَلْبِ... وفَهِمْت الشَّيْءَ: عَقَلْتُه وعرَفْته، وفَهَّمْت فُلَانًا وأَفْهَمْته، وتَفَهَّم الْكَلَامَ: فَهِمه شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ. ... واسْتَفْهَمه: سأَله أَنْ يُفَهِّمَه، وَقَدِ اسْتفْهَمَني الشيءَ فأَفْهَمْته وفَهَّمْته تَفْهِيمًا."[1]

الاستفهام اصطلاحاً:

قال الشريف الجرجاني في التعريفات: " الاستفهام: استعلام ما في ضمير المخاطب، وقيل: هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن، فإن كانت تلك الصورة وقوع نسبة بين الشيئين، أو لا وقوعها، فحصولها هو التصديق، وإلا فهو التصور.".[2]

أدوات الاستفهام:

للاستفهام ثلاث عشرة أداة، وهذه الأدوات قسمها النحاة إلى حروف وأسماء، **فالهمزة وهل** حرفان لا محل لهما من الإعراب، أما الأسماء فلها دلالات مختلفة، وكلها مبنية لها محل من الإعراب ما عدا (أيّ) فهي معربة، فـ(من)، و(منذا)، للعاقل، و(ما)، و(ماذا)، لغير العاقل، و(متى)، و(إيّان) للدلالة على الظرفية الزمانية، و(أين) للظرفية المكانية، و(أنّى) للدلالة على الظرفية المكانية أو الحال، و(كيف) للدلالة على الحال، و(كم) للدلالة على العدد، و(أيّ) للدلالة على ما سبق وفق ما تضاف إليه[3].

نال الاستفهام قسطاً وافياً من الاهتمام من لدن سيبويه، وقد عرض له في غير موضع من كتابه، وكان الاهتمام جلّه منصباً على الهمزة ووجوه استعمالها، وجعل سيبويه الهمزة أصل باب الاستفهام، ولذلك بيّن الفروق بينها وبين سائر أدوات الاستفهام، فهي تدخل على الجملتين الاسمية والفعلية أما باقي الأدوات فلا تدخل إلا على الجملة الفعلية، قال سيبويه: " واعلم أنه إذا اجتمع بعد حروف الاستفهام نحو (هل وكيف ومن) اسمٌ وفعلٌ، كان الفعل بأن يلي حرف الاستفهام أولى؛ لأنها عندهم في الأصل من الحروف التي يذكر بعدها الفعل."[4]

---

[1] - لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري (المتوفى: 711هـ) الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ، (فهم).

[2] - كتاب التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: 816هـ)، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، الطبعة: الأولى 1403هـ -1983م. ص18.

[3]- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى: 761هـ)، المحقق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، دار الفكر – دمشق، الطبعة: السادسة، /1985/، 18/1.

[4]-الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: 180هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، 1408 هـ - 1988 م. 115/3.

وذهب بعض النحويين إلى أنّ الهمزة وهل حرفان أصليان في الاستفهام، أما أسماء الاستفهام فليست أصيلة في بابها، وإنما تؤدي وظائف أخرى يظهرها سياق الكلام، وعلى الرغم من ذلك، فقد فرّقوا بين الهمزة وهل، وبيّن ابن هشام هذه الفروقات بقوله: " وتفترق (هَل) من (الْهمزَة) من عشرَة أوجه:

أَحدهَا: اختصاصها بالتصديق، وَالثَّانِي: اختصاصها بِالْإِيجَابِ تَقول (هَل زيد قَائِم)، وَيمْتَنع (هَل لم يقم) بِخِلَاف الْهمزَة، وَالثَّالِث: تخصيصها الْمُضَارع بالاستقبال نَحْو (هَل تُسَافِر)، بِخِلَاف الْهمزَة نَحْو (أتظنه قَائِماً)، وَالرَّابِع وَالْخَامِس وَالسَّادِس: أَنَّهَا لَا تدخل على الشَّرْط وَلَا على "إِنّ" وَلَا على اسْم بعده فعل فِي الِاخْتِيَار بِخِلَاف الْهمزَة، وَالسَّابِع وَالثَّامِن: أَنَّهَا تقع بعد العاطف لَا قبله وَبعد (أم)، التَّاسِع: أَنه يُرَاد بالاستفهام بهَا النَّفْي؛ وَلذَلِك دخلت على الْخَبَر بعْدهَا، والعاشر: أَنَّهَا تَأتي بِمَعْنى (قد) وَذَلِكَ مَعَ الْفِعْل".[5]

الاستفهام الحقيقي والاستفهام المجازي:

قد يخرج الاستفهام عن غرضه الحقيقي، وهو طلب العلم والفهم، إلى أغراض أخرى، إذ إنّ المتحدث يحمل هذه الأدوات دلالات بلاغية تستنبط من السياق، وهذا ما نعنيه بالاستفهام المجازي.

ويعدّ سيبويه من أوائل النحاة الذين أشاروا إلى ذلك، فقال في باب (ما جرى من الأسماء التي لم تؤخذ من الفعل مجرى الأسماء التي أُخذت من الفعل): " وذلك قولك: أَتمَيمِيًّا مرّة وقَيْسِيًّا أُخْرَى وإنَّما هذا أنَّك رأيتَ رجلاً في حال تلون وتنقل، فقلت: أتميمياً مرّةً وقيسيًّا أُخْرَى، كأنك قلت: أتحول تميمياً مرة وقيسياً أخرى، فأنت في هذه الحال تعمل في تثبيت هذا له، وهو عندك في تلك الحال في تلوم وتنقُّلٍ، وليس يَسأله مسترشِداً عن أمرٍ هو جاهلٌ به ليفهَّمَه إيّاه ويُخبِرَه عنه، ولكنه وبَّخه بذلك"[6].

فقوله: أتميمياً مرة وقيسياً أخرى لا يهدف من ورائها إلى أي جواب، ولكنها حملت معنى التوبيخ، هذا الأمر دفع البلاغيين إلى التعمق في أسلوب الاستفهام واستكشاف المعاني البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام، وقد ذكروا أكثر من عشرين معنى، قال الصعيدي في بغية الإيضاح: " هذه الألفاظ كثيرا ما تستعمل في معانٍ غير الاستفهام بحسب ما يناسب المقام؛ منها:

الاستبطاء نحو قوله تعالى: ﴿ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: 214].

ومنها التعجب نحو قوله: ﴿ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ [النمل: 20].

[5] - مغني اللبيب 457/2-460.

[6] - الكتاب 343/1.

ومنها التنبيه على الضلال نحو:﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾[التكوير: 26].

ومنها الوعيد؛ نحو قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: 16].

ومنها الأمر نحو قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: 14] .

ومنها التقرير: ويُشترط في الهمزة أن يليها المقرَّر به كقولك: أفعلتَ؟ إذا أردتَ أن تقرره بأن الفعل كان منه، وكقولك: "أأنت فعلت؟ " إذا أردت أن تقرره بأنه الفاعل.

ومنها الإنكار: إما للتوبيخ، بمعنى: ما كان ينبغي أن يكون نحو: "أعصيتَ ربك؟ " أو بمعنى: لا ينبغي أن يكون؛ كقولك للرجل يضيع الحق: "أتنسى قديم إحسان فلان؟ " وكقولك هذا للرجل يركب الخَطَر: أتخرج في هذا الوقت؟ أتذهب في غير الطريق؟ والغرض بذلك تنبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل أو يرتدع عن فعل ما همّ به. وإما للتكذيب بمعنى: "لم يكن" كقوله تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ [الإسراء: 40]

ومنها التهكم نحو: ﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: 87].

ومنها التحقير كقولك: مَنْ هذا؟ وما هذا؟.

ومنها الاستبعاد نحو: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ [الدخان: 13، 14].

ومنها التوبيخ والتعجيب جميعا؛ كقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 28] أي: كيف تكفرون، والحال أنكم عالمون بهذه القصة؟ "[7].

ولابدّ من الإشارة في هذا السياق إلى أنّ الاستفهام المجازي وإن خرج عن معناه الحقيقي إلا أنه يبقى

حاملا معناه، قال ابن جني: " واعلم أنه ليس شيء يخرج عن بابه إلى غيره إلا لأمر قد كان وهو على بابه ملاحظاً له وعلى صَدَد من الهجوم عليه وذلك أن المستفهم عن الشيء قد يكون عارفا به مع استفهامه في الظاهر عنه لكن غرضه في الاستفهام عنه أشياء، منها أن يرى المسؤول أنه خفي عليه ليسمع جوابه عنه. ومنها أن يتعرف حال المسئول هل هو عارف بما السائل عارف به. ومنها أن يُرى الحاضر غيرهما أنه

[7] - بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي (المتوفى: 1391هـ)، مكتبة الآداب، الطبعة: السابعة عشر: 1426هـ-2005م. 2/259-268.

بصورة السائل المسترشد لما له في ذلك من الغرض. ومنها أن يُعد ذلك لما بعده مما يتوقعه حتى إن حلف بعد أنه قد سأله عنه حلف صادقا فأوضح بذلك عذرا."[8]

الاستفهام في ديوان الخاطر:

من خلال دراستنا لديوان الشاعر خلصنا إلى أنّ الشاعر مسكون بالحيرة والتساؤلات، فقد آلمته الحال التي وصلت إليها أمته، فهي أمة ضائعة وجائعة ومنكسرة، وغربت حضارتها كغروب الشمس، وانقلب نهارها ليلاً دامساً، وقد لخص هذه الحال بقوله في قصيدة التي استهلها بالاستفهام، وعنونها بالدوائر[9]، كناية عن دورانه في حلقة مفرغة:

من أين أبدأ أيها الساري

ولا مسرى لديّ

سوى التوغل في براري الروح

أطلق وعلة وأصيد أخرى

ثم أترك للمدى

حرية التشكيل يرسم ما يشاء.

يا أبا "رؤيا" أسائلك الجواب

وجع وجوع وانكسار

جوع على وجع، وليل في نهار

هذي خرائط ليلتي

أو قل خرائط أمتي

[8] - الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: 392 هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب – بيروت. 465-464/2.

[9]- ديوان الشاعر مختارات [ص5-7].

تأتيك لو عرف السعاة طريقهم

للغائبين ولا غياب.

ومما يزيد حيرته وضياعه أنه عاجزٌ عن فعل أيّ شيء، فيختم ديوانه بقوله[10]:

أن تعرف ما يجري

أو تجهل ما يجري

لا فرق

رجلاك مقيدتان

ويداك مكبلتان

وغريب صوت الحق.

فنراه من الكلمة الأولى يمتطي أسلوب الاستفهام، وقلما تخلو قصيدة من قصائده الاثنتين والأربعين من أداة من أدوات الاستفهام بقطع النظر إن كان الاستفهام حقيقياً أو مجازياً، ومما يعزز ما ذهبت إليه أنّ الشاعر لم يكتف بأدوات الاستفهام للتعبير عن دفقاته الشعورية، بل لجأ إلى استخدام الفعل (سأل) ومشتقاته في غير موضع ليبين حجم التساؤل الكبير الذي يدور في خلده، وبلغت تلك المواضع ستة وأربعين موضعاً، أسند الفعل إلى ضمير المتكلم في ستة وعشرين موضعاً، منها قوله في قصيدته (اللون الأحمر)[11]:

أتساءل ملء الوقت

ماذا يجدي الصمت

وحوار أغلق باب /الحاء/

أتساءل واللون الأحمر

يتوهج في عينيّ، تغيب الرؤية

تختلط الأضواء

ديوان الشاعر [ص263].

11- ديوان الشاعر[ص211-212].

أتساءل ثم يغيب الشارع

يبتلع الاسفلت

يتشرب أضواء القمر المصلوب

وأسنده إلى ضمير المخاطب في خمسة عشر موضعاً، وإلى ضمير الغائب في خمسة مواضع، وذكر مصدر الفعل في خمسة مواضع، كقوله في قصيدة (العقاعق والنسور)[12]:

وسؤالك المجنون تعرفه العصافير التي

ما غيّرت أعشاشها

فلتسأل الطير_ انتهى وقت التساؤل_ ربما

عصفورة تفضي إليك بسرها، أو ربما

تقتادك الكلمات للعسس المعبأ في

قناني الغاز في كيس الطحين

بعلبة الخان أو خمرة الليل المشين.

بلغ عدد أدوات الاستفهام التي استخدمها الشاعر على مساحة ديوانه/ 299/ أداة وذلك وفق الجدول الآتي:

الأداة	عدد مواضع ورودها	نسبة التكرار
الهمزة	57	%19
هل	14	%5
من	41	%14
منذا	0	%0
ما	31	%10
ماذا	21	%7
متى	2	%.006
أيّانَ	0	%0
أين	39	%13

12- المرجع نفسه [ص113].

أنّى	0	%0
كم الاستفهامية	0	%0
كيف	65	%22
أيّ	29	%10

مما سبق نجد أنّ اسم الاستفهام (كيف) هو الأكثر استعمالاً إذ بلغت نسبة تكراره/22%/ هذه الكثرة تعكس الحالة النفسية التي يحياها الشاعر، فهو في حيرة كبيرة، يبحث عن جواب ولا جواب، عن كوة نور لعله يجد مخرجاً مما هو فيه، ولا مخرج.

فيما يأتي سأتوقف عند أداة واحدة من الأدوات التي امتطى صهوتها الشاعر، إذ إنه من الصعوبة أن ندرس الأدوات جميعها في بحث صغير، وسأختار الهمزة؛ لأنها هي الأصل في أدوات الاستفهام، ولأنها تتسم بسمات تفتقدها باقي الأدوات.

دخول الهمزة على الجملة الاسمية:

دخلت الهمزة على الجملة الاسمية في سبعة مواضع فقط، وهذه سمة تتميز فيها الهمزة من سائر أدوات الاستفهام.

وأرى أنّ قلة دخولها على الجملة الاسمية التي تتصف بالثبات يبيّن رفض الشاعر للسكينة والرضوخ والقبول بالأمر الواقع، فروحه تمور، وتتطلع إلى تغيير الحال التي يحياها، فهو يقول في قصيدته (حمدان)[13]:

فتشجّعي ودعي الجذورا

تمرعْ بصمت والزهورا

قولي لزائرك الرحوم أما لديكا

حلمٌ نغيب به عن الدنيا وعنكا

فالشاعر يخاطب نفسه _متمثلاً قول قطري بن الفجاءة[14]: (وَقَولِي كُلَّما جَشَأَتْ وجَاشَتْ... مَكَانَكِ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحي)_ طالباً منها أن تتخلى عن الاستسلام للأمر الواقع وعن حال الدعة والسكينة مثل الأموات الذين

12- ديوان الشاعر[ص252].

14- الحماسة البصرية، علي بن أبي الفرج بن الحسن، صدر الدين، أبو الحسن البصري (المتوفى: 659هـ)، المحقق: مختار الدين أحمد، عالم الكتب – بيروت. 4/1.

تحت التراب، رافضاً أن تكون كالجذر الذي يرضى بالظلام، أو كالزهور التي لا حول لها ولا قوة، فهو يتطلع ويحلم بغد أفضل، فحملت الهمزة معنى التمني إلى تغيير الواقع الذي يعيشه.

وثمة سمة أخرى تتفرد فيها الهمزة؛ وهي حذفها وبقاء معناها، وجاء ذلك في جملتين، إذ حذفت ودلّت عليها (أم) المعادلة، وفي كلا الموضعين جاءت مصاحبة لحلمٍ تبخّر وغدا سراباً، يقول في قصيدته (الدوائر)[15] :

قد أقفرت عندي براري الروح

لا كأس يدار ولا غزال يشتهى

والحلم أقصره احتجب

هي فعلة الخمسين أم

أنّ القبائل أنشبت أظفارها

لقد رشحت من هذه الهمزة المحذوفة سخرية مرّة وتحسّر، فهو غدا مثل قشة في جناح الريح، بعد أن تركه الجميع يقارع وحده لا معين له، ولم يكتفوا بذلك، بل أنشب الجميع أظفاره في روحه المتطلعة إلى الخلاص، لأنه إن انتصر سيعريهم جميعاً، فغدت روحه صحراء جرداء لا ماء فيها لتحيا من جديد. وعاد وأكّد هذا المعنى في قصيدته (الظمأ)[16]فهو يقول:

ما مرّ وفات

حلمٌ في المهد ومات

حلمٌ هذا أم بعض رفات

ما استكمل صورته

استهلك منا العمر، فهل من عمر ثانٍ

لقد دقّ الشاعر جدار الخزان مرات عدّة علهم يستمعون ويتنبهون، حلمه تبخر وغدا رفاتاً، فجاءت الهمزة حاملة معنى التيئيس، فغدا يقول لنفسه: أسمعت لو ناديت حيا، ولكن لا حياة لمن تنادي. وعلى الرغم من

15- ديوان الشاعر[ص10-11].
15- ديوان الشاعر[149].

هذا اليأس الطافح نجد الشاعر لا يزال يبحث عن كوة نور فجعل (هل) متبوعة بـ(من) الزائدة المفيدة للتوكيد حاملة معنى التمني ليؤكد أنّ الأمل مازال مرتسماً في عينيه.

أمّا الموضع الرابع الذي جاءت فيه الهمزة متفردة بسمة تفتقدها سائر أدوات الاستفهام، وهي دخولها على حروف العطف، فيقول في قصيدة (مسافرة)[17]:

أوَ كلُّ هذا الحب في قلبي وأكتمه

عن العينين من شجر وماء

أوَ كل هذا الحب كان مغيّباً

وقت التزامن ثم أعرف فجأة

بعد الرحيل بأنني ريش بجنح الريح، أو

سمك تجاسر أن يغادر بحره

للرمل فاحتضن العياء.

نرى أن الشاعر يعيش مفارقة مؤلمة، فهو عرف الحقيقة متأخراً، وهيهات أن يغيّر ما آلت إليه الأمور، فنراه يتعجب أو لنقل إنه يوبخ نفسه لاكتشافه تلك الحقيقة المرّة، فهو لا يقلّ حماقة عن أولئك الذين ظنوا أنّ الرحيل والتغرّب هو الحل لمشكلاتهم، فغدوا كالسمك الذي غادر ماءه وتدثر بالرمال وهو لا يعلم أنه يسعى إلى حتفه.

وقد أكّد هذا التمني حينما استخدم الهمزة متبوعة ب(ما) و(من الزائدة) في قصيدته (رحلة تعب) فقال[18]:

أضاعَ الصوتُ في المنفى

أكل الناس سيّاحة

أليس لغربتي ملفى

أما من مرفأ للدفء والراحة

16- ديوان الشاعر[ص75].
17- ديوان الشاعر[ص233-234].

تُرى في ساحة التحرير ألقاها

تُرى في ساحة المرجة

تُرى في شارع الحمراء مخفية

وهل تاها

زمان الحب والبهجة

تكلم يا جدار الصمت

تكلم يا جدار الموت.

استخدم الشاعر في هذا المقطع الهمزة ست مرات، ثلاثة منها محذوفة يدلّ عليها السياق، حملت في الموضعين الأول والثاني معنى التعجب، أمّا في الموضع الثالث فحملت معنى التحقيق، في حين عادت للدلالة على الإنكار في الموضع الرابع، أمّا الموضع الخامس فحملت معنى السخرية والتهكم، ومن ثم ختمها في الموضع الأخير بـ(هل) التي عادت لتحمل معنى التحسر على زمن تولّى ومضى ولن يعود.

دخول الهمزة على الجملة الفعلية:

أدوات الاستفهام جميعها تدخل الجملة الفعلية، وقد دخلت الهمزة على الجملة الفعلية في/50/ موضعاً، بقطع النظر عن نوع الفعل، إن كان ماضياً، أو مضارعاً، أو ناقصاً، أو مبنياً للمجهول.

أ- الجملة الفعلية ذات الفعل الماضي:

جاءت الهمزة متبوعة بفعل ماضٍ في عشرة مواضع، في ثلاثة منها دخلت على (ليس) ومن المعروف أنّ دخول الهمزة على الفعل المنفي تحمل دلالة التقرير والتأكيد، ومن ذلك قوله في قصيدته (بطاقة إلى رجل ميت)[19]:

أرى بوجهه الصمود، صوته

يعيد لي بداوة الصحراء

يردّ لي ما ضاع من أمل

18- ديوان الشاعر [ص 202].

لكنني فوجئت بالرجل

يدخل في قصر الإمارة

يخرج من بوابة الأتباع

سألته: ألست ذلك الذي...

أجابني نعم..

ومن المؤلم في هذا المقطع ما ختم به الاستفهام، فهذا الرجل الذي كان يوماً رافضاً للخنوع، وكان أملاً ونبراس خلاص لكل المعذبين والمقهورين غدا تابعاً ذليلاً، فكان جوابه بـ(نعم) بدلاً من (بلى) ليؤكد أنه لم يعد ذلك الرجل فأنكر نفسه.

وجاءت الهمزة في موضع آخر تحمل غير دلالة يفرضها السياق الذي جاءت فيه، إذ قال في قصيدته (حمدان)[20].

مولاي عفوك نحن لا نعدو الحدودا

كل الذي نبغيه قوتاً أو كساءً

فامنح فما نبغي المزيدا

نرجوك، نبلغك الرجاء

هَبْنا سواماً تقتنيها

أوَ لست تطعم جائعيها؟

فنراها تصدرت حرف العطف حاملة دلالة التذكير والاستعطاف والحث للمخاطب، وربما والسخرية منه، وبيّن هذه السخرية بوضوح عندما أشار إلى الشعب بلفظ (سوام)، أي الأنعام والحيوانات، فمن يملك حيواناً يعتني فيه ويطعمه، وفي الوقت عينه تحمل معنى الرجاء للمتكلم، فأي حال وصل إليها هذا الشعب الذليل الذي غدت أكبر أمنياته أن يطعم ويكسى!!

أمّا في قصيدته (أوراق) فقد دخلت على فعل ناقص غير منفي إذ قال فيها[21]:

20- ديوان الشاعر [ص248].

وأنت يا مدينة التقى

والعدل والصلاح

كيف انقلبت باشقاً

وكنت طيراً عاشقاً

حمامة تحنو على الأفراخ

ترخي فوقها الجناح

إن أعولت رياح

منقارك استطال، ربما، ولكن

هذه المخالب الطويلة

من أين يا حمامتي الجميلة

وكيف أنشبتها في القلب

أهكذا كان الهوى والحب؟!

ضمت هذه المقطوعة غير أداة استفهام، فكيف جاءت حاملة معنى التعجب في ورودها الأول، ومعنى التوبيخ والاستهجان في ورودها الثاني، وجاءت أين حاملة معنى التعجب، أمّا الهمزة فقد حملت معنى النفي، فالمحب الصادق لا ينشب مخالبه في سويداء قلب من يحب، وتحمل أيضاً دلالة الإنكار من حب يودي إلى الموت والهلاك.

ومن المواضع التي دخلت عليها على فعل ماض تام، قوله في قصيدته (رحلة)[22]:

صديقتي أما عرفت قصتي؟

أما رأيت الموس في حلقي

أما عرفت أنّ الهودج الحزين

21- المرجع نفسه [ص165]
22- ديوان الشاعر[53-54].

أتعبني، فلندخل (المترو) معاً

ذوّبني الحنين

لعالم أعيش فيه دونما ألم

ودونما ندم

على الذي مضى.

لقد جاءت الهمزة متلوة بحرف النفي، فالمعنى العام يدل على التحقيق والتقرير، لكنّ سياق الكلام يدفعنا إلى لمح دلالات أخرى للهمزة هنا، ففي السطر الثاني تحمل الإنكار المشوب بالسخرية من إغفالها آلامه التي تعتصر في القلب، فقوله" الهودج الحزين" يدلل على أنّ ألمه لا يقل عن ألم السيدة زينب بنت علي التي فقدت أخاها الإمام الحسين في كربلاء.

لقد أنهكت الشاعر تلك القصص الحزينة الراشحة من تاريخنا العربي منذ ما يزيد عن ألف عام وأتعبته، فالحزن والألم يكلل ذلك الماضي، ومازال مستمراً إلى اليوم، ولذا يتطلع إلى عالم يعيش فيه بعيداً عن تلك الآلام وما سببته من أحقاد تتوارثها الأجيال، يتطلع إلى عالم يكون بدء ميلاد جديد كي لا نندم على ما صار وعلى ما فات.

وقد بين هذا المعنى صراحة في بطاقاته إلى رجل ميت[23]:

أبكي دماء الشهداء

أم أنني أبكي دمي الذي انسفح

أبكي وما يجدي البكاء؟!

أكلّ أرض كربلاء

وكلّ حاكم يزيد

من ألف عام أو يزيد غادرني طعمُ الفرح.

لقد وردت الهمزة غير مرة في هذا المقطع المتشح بالحيرة والألم، ففي ورودها الأول الذي جاءت فيه محذوفة دلت عليها (أم) المعادلة حملت معنى الإنكار والتحسّر، أمّا في الموضع الثاني فجاءت محذوفة دلّ عليها

23- ديوان الشاعر[ص204].

سياق الكلام، وحملت معنى التعجب، فهو على قناعة أنّ البكاء لا يجدي، وجاءت ما الاستفهامية تحمل معنى النفي، أما في الموضع الثالث فحملت معنى التهكم والسخرية المرة.

ب–الجملة الفعلية ذات الفعل المضارع:

دخلت الهمزة على الفعل المضارع في أربعين موضعاً، وقد تنوّع دخولها على الفعل من حيث فاعله، فمن دخولها على الفعل المسند إلى ضمير المتكلم، قوله في قصيدته (حمدان)[24]:

أأنام والأرق المسفّ

يقعي عليّ ولا يخفُّ

ماذا أقول؟ أأبعدُه وأغفو؟

فجاءت الهمزة تحمل معنى التعحب في الموضع الأول، أما في الموضع الثاني فجاء الاستفهام حقيقياً، وإن حمل في طياته معنى النفي، وكقوله في قصيدته (لا بدّ من صنعا)[25] :

أنساك

إن نسي الهوى أحبابه

أو فارق الأزهار يوماً ذلك العبقُ

أنساك؟

أنسى أنني....

لو أنني أفصحتُ أحترقُ

عزّ الهوى أن أكتم الأسرار في صدري

أصرّح بالذي لا يجرح النُسّاكَ إن عشقوا

أحببت قبلك؟ ربما لكنني

غسّلت من ذل الهوى قبل السفر

24- ديوان الشاعر [ص250].
25- المرجع نفسه[ص120].

وأتيت أحمل خافقاً متعطشاً

فرويت غلّته ولوّنت الصور

إنّ الهمزة في الموضع الأول جاءت حاملة معنى النفي والإنكار، ودلّ على ذلك سياق الكلام الذي قبله، فالهوى لن ينسى أحبابه، والزهر لن يفارق عبقه وأريجه، وجاءت الهمزة في الموضع الثاني محذوفة دلّ عليها السياق، فالتقدير: أأنسى أنني متيم فيك وعاشق لك، وحملت الهمزة معنى التعجب، وحذف الخبر هنا ليزيد الصورة إشراقاً، لأنّ الإفصاح عن الحب يقلل منه فيخبو بريقه وألقه. وجاءت في الموضع الثالث مع الفعل الماضي دالة على استفهام حقيقي، ومعناها التصديق، ولا ريب أنّ قوله: ربما يعادل قوله نعم، ولكن ذلك الحب نزعه من قلبه، وجاء حاملاً قلباً فارغاً ليضع فيه محبوبته الجديدة، وكقوله في قصيدة (أعيش احتراقي وأحبك)[26] :

أيّ الذنوب اقترفنا

لمَ الحزنُ غشّى وجوه الصغار؟

ألم نكفه نحن حتى استطال

وشرش فيهم جذور الدمار

أراها، وأعجز، أبكي

فبيني وبين الجذور الجدار

أراها، ومن أجلها الآن أمضي

أحبك وأمضي

ضمّت هذه المقطوعة ثلاث أدوات من أدوات الاستفهام، فـ(أي) جاءت هما بمعنى (ما) الاستفهامية، وهي هنا تحمل معنى الإنكار، أما (ما) الاستفهامية فقد حذفت ألفها لدخول حرف الجر عليها، وجاءت هنا حاملة معنى التحسر، أمّا الهمزة فجاءت حاملة معنى التقرير والتأكيد.

ومن دخولها على الفعل المضارع المسند إلى ضمير المخاطب قوله في قصيدته (تغريبة السلماس)[27]:

26- ديوان الشاعر [ص154].
27- ديوان الشاعر [ص46-47].

أتنكر أنهم رحلوا .. ومانزلوا

ورأسي ما تدحرج، إنما جسدي

أتنكر جرحك المخفي في كبدي

أتئنّ نيابة عن صاحبي

وتشرب من دمي، تنسى

بأني ذلك المجروح

وأني مثلك المنفي

أتسألني؟ .....

وذاك هو الفرات إذا أردت الماء ..

حملت الهمزة في المواضع السالفة كله دلالة التوبيخ والتهمكم والسخرية، فكأنّ السائل غدا أعمى لا يرى أمامه، أو تجاهل عن الحقيقة، فهو يرى بأم عينيه ما يدور، ولم يسمع من أحد وجاء ليتبين الحقيقة، كقول الشاعر: [28]

يَا ابْنَ الْكِرَامِ أَلاَ تَدْنُو فَتُبْصِرَ مَا ... قَدْ حَدَّثُوكَ فَمَا رَاءٍ كَمَنْ سَمِعَا؟

فالحقيقة واضحة أمامك، وأنت بين خيارين لا ثالث لهم، إما أن تكون رافضاً مقاوماً مثلي وتتجه إلى الصحراء بما تمثل من شظف العيش وقسوته، وإما أن تكون ذليلاً، فلفظ الفرات هنا يحمل دلالة السكينة والراحة والهدوء.

ومن دخولها على الفعل المضارع المسند إلى الغائب قوله في قصيدته (الظمأ)[29] :

أيغيّر نهر مجراه

في هذي السرعة، لا أدري

أتبدل أم طفلتها؟

[28] ـ لم أقف على قائله، ينظر هذا البيتُ في: شرح شذور الذّهب 290، وشرح ابن عقيل 323/2.
28- ديوان الشاعر[ص147].

تنسى أيام الحمل وعسر ولادتها

أنا لا أدري

لكني أعرف أني أحيا في زمن

تتقلب فيه الأشياء

تتحكم فيه النزوة والغايات

تتوالد تجهض فيه به الثورات

أما تبدل المواقف وتغيير الجلود، يقف الشاعر منكراً هذا الفعل متسلحاً بأخلاق الرجل المبدئي، فنرى الهمزة تحمل غير دلالة، فهي تحمل معنى النفي والإنكار، وتحمل في الوقت عينه معنى التهكم والسخرية المرّة، من أولئك الذين بدّلوا مواقفهم، وباعوا مبادئهم لقاء نزوة عابرة وغاية قاصرة، إنّ هذا الفعل هو سبب جوهري لاندلاع الثورات ضده، وهو في الوقت نفسه قد يكون السبب في وأد الثورات وتطلعات أصحابها من الفقراء والكادحين.

إنّ الشاعر الخاطر الرغم من اليأس الذي يعيشه بقي متمسكاً بأمل يلوح في غد قادم، فنراه يقول في قصيدته (انتظار العاشق)[30]:

أتيت بابك فافتحيه

تعبت من سفر، تعبت وأنت نائمة

أوقظ فيك طير النوم، هل يصحو القتيل

وإذا صحا، أيجود سيدتي الزمان المستحيل؟

إنّها أسئلة تحمل دلالات النفي والإنكار من ناحية، وتحمل دلالات التمني بغد قادم جميل.

نتائج البحث:

29- المرجع نفسه [ص186].

مما سبق لا أستطيع في هذا السياق أن أذكر كل المواضع التي استخدم فيها الشاعر أسلوب الاستفهام، إذ لم تمر صفحة من صفحات ديوانه خالية من الاستفهام، ويمكنني أن أبين أهم ما خلصت إليه في هذا الديوان:

1- معظم الاستفهام الوارد في الديوان كان مجازياً، أراد الشاعر من خلاله أن يحمل هذه الأدوات ما يجيش في عقله من أسئلة وما تجيش به نفسه من مشاعر وأحاسيس، وفي الوقت نفسه منح المتلقي الحرية في استنباط الدلالات المستترة خلف هذا المجاز، وفق الحالة النفسية والمشاعر المختلفة التي تمور في نفس المتلقي.

2- اسم الاستفهام الأكثر وروداً في الديوان (كيف) حيث استعمله الشاعر في الماضي والحاضر، ليعبر من خلاله عن حال التعجب مما يرى، رافضاً هذا الواقع الذي آلت إليه الأمور.

3- حرف الاستفهام الأكثر دوراناً في الديوان هو (الهمزة)، وقد جاءت حاملة معنى التصديق في بعضها ومعنى التصور في مواضع أخرى، وظهرت معظم السمات التي تفردت بها الهمزة عن سائر أدوات الاستفهام، كحذفها وبقاء معناها، ودخولها على الجملة الاسمية، وتصدرها حروف العطف.

4- ثمة أدوات لم يستخدمها؛ وهي كم الاستفهامية، ومنذا، وإيّان، وأنّى.

5- دخلت الهمزة على الجملة الاسمية بقلة، وسبب ذلك دلالة الجملة الاسمية على الثبات، المناقض لرؤية الشاعر ولروحه التي تعج بالحركة والرافضة للواقع.

6- تعددت دلالات الاستفهام في الهمزة، وظهر غرض التقرير والتعجب والإنكار والسخرية بكثرة.

ثبت المصادر والمراجع:

1-بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي (المتوفى: 1391هـ)، مكتبة الآداب، الطبعة: السابعة عشر: 1426هـ-2005م.

2-الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: 392 هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب – بيروت.

3-الحماسة البصرية، علي بن أبي الفرج بن الحسن، صدر الدين، أبو الحسن البصري (المتوفى: 659هـ)، المحقق: مختار الدين أحمد، عالم الكتب – بيروت. لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري (المتوفى: 711هـ)، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – 1414 هـ.

5- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، المؤلف : ابن عقيل ، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري (المتوفى : 769هـ)، المحقق : محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر : دار التراث – القاهرة، دار مصر للطباعة ، سعيد جودة السحار وشركاه، الطبعة : العشرون 1400 هـ - 1980 م.

6- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، المؤلف : عبدالله بن يوسف بن عبدالله بن يوسف بن أحمد بن عبدالله بن هشام، تحقيق : عبدالغني الدقر، الناشر : الشركة المتحدة للتوزيع – دمشق، الطبعة الأولى ، 1984

7- الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: 180هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، 1408 هـ - 1988 م.

8–كتاب التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: 816هـ)، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان، الطبعة: الأولى 1403هـ –1983م.

9–مختارات، شعر مروان الخاطر، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2020.

10–مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى: 761هـ)، المحقق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، دار الفكر – دمشق، الطبعة: السادسة، 1985.

Abstract

Marwan AL-Khater ,this au thentic Euphratet, poet, Combines the two extremes, with the presence in spirit, poetry and thought and his a bsence from us in body, and the best proof of desired Letters and words keeps the Frost away from our hearts, and the Light of his glorious letter countinues to dispel the darkness of our days, May his soul rest in the Liver of the sky a thousand greetings.

Our research aims to highlight the sign ificance of the question in the poetry of al-khater , as the question, especially Figuratively, is an expressive means through which the poet expresses the Feelings raging in his chest.

Key words: (indication – real interro gative – metaphorical interrogative – context).